(٢)

"نجّى الله تعالى موسى عليه السّلام وبني إسرائيل من فرعون والغرق، وأغرق فرعون وقومه"

الآيات(١٧-٣٣)

﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولقد فتنّا قبلهم: ولقد اختبرنا وابتلينا يا محمّد قبل مشركي قومك[١].

قوم فرعون: من القبط[٢].

وجاءهم رسول كريم: وجاء قومَ فرعون رسولٌ من الله كريم عليه[٣] هو موسى بن عمران صلوات الله عليه[٤].

أن أدّوا إليّ عباد الله: بأن أدّوا إليّ ما أدعوكم إليه من الإيمان[٥] واتّبعوني إلى ما أدعوكم إليه من الحقّ[٦] يا عباد الله[٧] ومفعول أدّوا محذوف[٨].

إني لكم رسول أمين: على وحيه ورسالته[٩].

---

(١) تفسير الطّبري ٢٥/٧١.
(٢) تفسير الطّبري ٢٥/٧١.
(٣) تفسير الطّبري ٢٥/٧١.
(٤) تفسير الطّبري ٢٥/٧١.
(٥) الجلالين.
(٦) تفسير الطّبري ٢٥/٧١.
(٧) تفسير الطّبري ٢٥/٧١ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/٣٦٨.
(٨) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/٣٦٨.
(٩) تفسير الطّبري ٢٥/٧١.

وألاّ تعلوا على الله: بألاّ تعلوا على الله أن لا تطغوا وتبغوا على ربّكم فتكفروا به وتعصوه فتخالفوا أمره[١].

عن ابن عبّاس: لا تفتروا على الله[٢].

إنّي آتيكم بسلطانٍ مبين: بحجّةٍ على حقيقة ما أدعوكم إليه وبرهانٍ على صحّته، مبين لمن تأمّلها وتدبّرها أنّها حجّة لي على صحّة ما أقول لكم[٣] وهي ما أرسله الله به من الآيات البيّنات والأدلّة القاطعة[٤].

وإنّي عذت بربّي وربّكم أن ترجمون: وإنّي اعتصمت بربّي وربّكم واستجرت به منكم أن ترجمون[٥] والرّجم هو الشّتم باللسان أو الرّجم بالحجارة[٦].

فاعتزلون: فخلّوا سبيلي غير مرجومٍ باللّسان ولا باليد[٧].

أنّ هؤلاء قوم مجرمون: بأنّ فرعون وقومه قوم مجرمون مشركون بالله كافرون[٨].

فأسر بعبادي: الّذين صدّقوك وآمنوا بك واتّبعوك دون الّذين كذّبوك منهم وأبوا قبول ما جئتهم به من النّصيحة منك[٩].

ليلاً: سر بهم بالليل قبل الصّباح[١٠].

---

(١) تفسير الطّبري ٢٥/٧١.
(٢) تفسير الطّبري ٢٥/٧١.
(٣) تفسير الطّبري ٢٥/٧١.
(٤) تفسير ابن كثير ٧/٢٣٨.
(٥) تفسير الطّبري ٢٥/٧١.
(٦) انظر تفسير الطّبري ٢٥/٧٢ وتفسير ابن كثير ٧/٢٣٨.
(٧) تفسير الطّبري ٢٥/٧١.
(٨) تفسير الطّبري ٢٥/٧١.
(٩) تفسير الطّبري ٢٥/٧٢.
(١٠) تفسير الطّبري ٢٥/٧٢.

إنّكم متّبعون: إنّ فرعون وقومه من القبط متّبعوكم إذا شخصتم عن بلدهم وأرضهم في آثاركم[1].

واترك البحر رهوا: في الكلام محذوف، وهو: فسرى موسى بعبادي ليلاً، وقطع بهم البحر، فقلنا له بعدما قطعه وأراد ردّ البحر إلى هيئته الّتي كن عليها قبل انفلاقه: اتركه رهواً[3] ساكناً منفرجاً حتّى يدخله القبط[2] وعلى هيئته والحال الّتي كان عليها حين سلكته، وذلك أنّ الرّهو في كلام العرب السّكون[4].

ولقد فتنا قبل مشركي قومك يا محمّد واختبرنا قوم فرعون من القبط وجاء فرعونَ طاغيةَ مصر وقومَه رسول من الله تعالى، كريم عليه جلّ وعلا، وهو موسى بن عمران عليه الصّلاة والسّلام.

وهكذا يشترك قوم محمّد – صلّى الله عليه وسلّم – من الكافرين وقوم موسى – عليه الصّلاة السّلام – في ابتلاء الله تعالى للفريقين بسبب تشابه الموقفين من الرّسولين الكريمين. وبذلك يكون تحول الحديث إلى موسى – عليه السّلام – تسلية لمحمّد –صلّى الله عليه وسلّم – ويكثر في القرآن الكريم التّحوّل من رسالة محمّدٍ – صلّى الله عليه وسلّم – إلى رسالة موسى – عليه السلام – بسبب أوجه الشّبه الكثيرة بين ملابسات دعوتي موسى ومحمد – عليهما السلام –.

---

(1) تفسير الطّبري ٧٢/٢٥.

(2) تفسير الطّبري ٧٢/٢٥.

(3) الجلالين وتفسير ابن كثير ٢٣٨/٧ وتفسير الطبري ٧٣/٢٥ ومفردات الرّاغب الأصفهاني:"رهو" .

(4) تفسير الطّبري ٧٢/٢٥.

لقد طلب موسى – عليه السّلام – من فرعون وقومه أن يؤدّوا إليه حقّ ما يدعوهم إليه من الإيمان، وتوحيد الله تعالى، وإفراده عزّ وجلّ بالعبادة. وكان كلامه عليه الصّلاة السّلام هو اللّين الهيّن، امتثالاً لأمر الله تعالى، وها هو ذا عليه الصّلاة والسّلام ينادي القول: يا عباد الله، أدّوا إلي حقّي عليكم باتّباعي. إنّي لكم رسول من الله تعالى، أمين على وحي الله تعالى ورسالته. وكما أدعوكم إلى اتّباع الحقّ الّذي جئت به، أنهاكم عن أن تطغوا وتبغوا على ربّكم وأن تستنكفوا عن توحيده وتستكبروا عن إفراده عزّ وجلّ بالعبادة.

إني آتيكم يا عباد الله بسلطان مبين، وحجّةٍ دامغة، تتمثّل في الآيات التّسع الّتي آتاني الله تعالى إيّاها، وهي العصا، واليد، والسّنون، ونَقص الثّمرات، والطّوفان، والجراد، والقمّل والضّفادع، والدّم[1].

وإنّي عذت بربّي وربّكم، واعتصمت بربّي وربّكم ربّ العالمين، أن ترجموني بالحجارة، أو أن ترجموني بالشّتم بألسنتكم.

وإن أنتم أصررتم على عدم الإيمان بي فتنحّوْا عن طريقي، وخلّوا سبيلي، ولا تمنعوني من الدعوة إلى الله تعالى، وتبليغ رسالة ربّي.

والمعروف أنّ فرعون وقومه أصرّوا على الكفر، وأنّ الّذين استجابوا لموسى – عليه السّلام –هم قومه بنو إسرائيل. وإن موسى – عليه السّلام –ليدعو ربّه عزّ وجلّ، ويشكو إليه فرعون وقومه، ويصفهم بأنّهم قوم مجرمون كافرون مشركون رغم لصوق موسى عليه السلام بهم وإلحاحه في دعوتهم إلى الله تعالى. وقد نصت الآية الكريمة الثّامنة والثّمانون من سورة يونس عليه السلام على دعاء موسى عليه السلام ربّه جلّ

---

[1] انظر الآيات الكريمات من سورة الأعراف ١٠٨،١٠٧، ١٣٠، ١٣٣.

وعلا. قال عزّ من قال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وأمر الله تعالى موسى – عليه السّلام– أن يسير ليلاً قبل الصّباح بعباده عزّ وجلّ، وهم المؤمنون من بني إسرائيل، ففعل واتّجهوا شرقاً. وأخبر عزّ وجلّ أنّ فرعون وقومه سوف يتبعونهم كي يعاقبوهم لمغادرة المدينة دون إذن فرعون الطّاغية. ويفعل موسى – عليه السلام – ما أمره الله تعالى، ويتبعهم فرعون وقومه، ويأمر الله تعالى موسى – عليه السّلام – أن يضرب البحر الأحمر بعصاه، فانفلق البحر، وسار موسى – عليه السلام– وبنو إسرائيل في طريقٍ جافٍّ غرقاً.

وحينما أراد موسى – عليه السّلام – للبحر أن يعود كما كان كيلا يدركه فرعون وقومه وأراد أن يضرب البحر بعصاه لأجل هذه الغاية أمره الله تعالى أن يترك البحر ساكناً على هيئته، و أن يدع كلاً من جانبي البحر على حاله، قائماً على ساقه، بإذن الله تعالى. حتّى إذا دخل فرعون و قومه البحر، و سلكوا الطّريق الّذي سلكه موسى – عليه السّلام– وبنو إسرائيل إلى أن بلغ موسى – عليه السّلام – وقومه برّ الأمان بفضل الله تعالى، أطبق الحقّ جلّ وعلا البحر على فرعون وقومه، وأغرقهم أجمعين، مصداقاً لقوله عزّ من قائل : {إنّهم جندٌ مغرقون}.

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾.

ومقامٍ كريم: و موضعٍ كانوا يقومونه شريفٍ كريم[1] وصفه بذلك لشرفه، وذلك أنّه مقام الملوك و الأمراء[2] وهي المساكن الأنيقة والأماكن الحسنة[3].

ونَعْمة: النَّعمة بالفتح: وهي المسرة والفرح والتّرفّه[4]

والتّنعّم. وبناؤها بناء المرّة من الفعل كالضّربة والشّتمة[5].

فاكهين: مفكّهين ناعمين[6].

كذلك: الأمر كذلك[7].

وأورثناها قوماً آخرين : هم بنو إسرائيل[8].

فما بكت عليهم السّماء و الأرض: قال ابن عبّاس: ذلك أنّه ليس على الأرض مؤمن يموت إلاّ بكى عليه ما كان يصلّي عليه من المساجد حين يفقده، و إلاّ بكى عليه من السّماء الموضع الّذي كان يرفع منه كلامه[9] و هؤلاء لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السّماء فتبكي على فقدهم، و لا لهم في الأرض بقاعٌ عبدوا الله فيها ففقدتهم[10].

---

[1] تفسير الطّبري ٢٥/٧٣.

[2] تفسير الطّبري ٢٥/٧٣.

[3] تفسير ابن كثير ٧/٢٣٨.

[4] لسان العرب: " نعم" .

[5] مفردات الرّاغب الأصفهاني : "نعم" ٢/٦٤٥.

[6] تفسير الطّبري ٢٥/٧٤.

[7] الجدول في إعراب القرآن و صرفه ١١/٣٧٢ ، والجلالين.

[8] تفسير الطّبري ٢٥/٧٤.

[9] تفسير الطّبري ٢٥/٧٥.

[10] تفسير ابن كثير ٧/٢٣٩.

وما كانوا منظرين : وما كانوا مؤخّرين بالعقوبة الّتي حلّت بهم ولكنّهم عوجلوا بها إذا أسخطوا ربّهم عزّ وجلّ عليهم[1] بعد أن أغرق الله تعالى فرعون و قومه في الماء المِلْح ما أكثر الحدائق الغنّاء الّتي تركوها وراءهم، والعيون المتدفّقة، والجداول المترقرقة، والزّروع النّضرة، والمقامات الشّريفة، والقصور المنيفة، والمساكن اللّطيفة، والنّعيم الغامر، والفرح الغامر.

الأمر كما ذكر الحقّ جلّ وعلا. وأورث الله تعالى كلّ ذلك قوماً آخرين هم بنو إسرائيل الّذين سامهم فرعون وقومه الخسف، والّذين نجّاهم الله تعالى من فرعون وجنده ومن الغرق.

ويصحّ أن نستنتج أنّ الّذين ورثوا فرعون وقومه هم الفريق من بني إسرائيل الّذين مكثوا في مصر ولم يخرجوا مع موسى - عليه السّلام- ومع الفريق الآخرين بني إسرائيل. والله تعالى أعلم.

إنّ السّماء لم تبك على فرعون وقومه لأنّهم لم يكن لهم كلمٌ طيّبٌ يصعد إلى السّماء، ولا عمل صالح يرفع إليها.

وكذلك لم تبك عليهم الأرض، لأنهم لم يكن لهم موضع سجودٍ فيها ولا مكان عبادةٍ لله تعالى.

إنّ السّماء والأرض إنّما تبكيان المؤمن الّذي يصعد إلى السماء كلمه الطّيب، ويُرْفَعُ عمله الصّالح، والّذي جعل الأرض مجداً وطهورا، وذكر الله تعالى ذكراً كثيرا.

---

[1] تفسير الطّبري ٢٥/٧٥.

وكما لم تبك السّماء والأرض على فرعون وقومه لم يمهلهم الله تعالى لتوبةٍ أو مَعْذِرة، بل أخذهم عزّ وجلّ بالغرق أخذ عزيزٍ مقتدر.

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

إنّه كان عالياً من المسرفين: إنّه كان جبّاراً مستعلياً على ربّه، من المتجاوزين ما ليس لهم تجاوزه[1] والسّرَف تجاوز الحدّ في كلّ فعلٍ يفعله الإنسان[2].

على العالمين: على عالمي زمانهم[3].

وآتيناهم من الآيات: من العبر والعظات[4] فقد أنجاهم الله من عدوّهم، ثمّ أقطعهم البحر، وظلّل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المنّ والسّلوى[5].

ما فيه بلاء عظيم: ما فيه اختبار يبين لمن تأمّله أنّه اختبار اختبرهم الله به[6].

ولقد نجّى الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل من العذاب المهين، من فرعون طاغية مصر وقومه الّذين كانوا يذبحون أطفال بني إسرائيل من الذّكور، ويبقون الأطفال الإناث أحياء، لتسخيرهنّ لخدمتهم حينما يبلغن مبلغ النّساء.

---

(1) تفسير الطّبري ٢٥/٧٦ .

(2) مفردات الرّاغب الأصفهاني: "سرف" ١/٣٠٤.

(3) تفسير الطّبري ٢٥/٧٦.

(4) تفسير الطّبري ٢٥/٧٦.

(5) تفسير الطّبري ٢٥/٧٦.

(6) تفسير الطّبري ٢٥/٧٦.

إلى تسخير بني إسرائيل في الأعمال الشّاقّة. إنّ فرعون كان مستعلياً على ربّه جلّ وعلا، مستنكفاً أن يكون عبداً لله تعالى، مسرفاً على نفسه، متجاوزاً فى حقّ عباد الله تعالى كلّ الحدود، بلغ في البغي غايته، وفي الطّغيان منتهاه.

والله سبحانه وتعالى اختار بني إسرائيل على أهل زمانهم، وهو عزّ وجلّ الّذي أحاط بكلّ شيءٍ علماً وخُبْرا، كما خصهم بالكثير من الآيات الباهرات الدّالّة على مكانتهم الرّفيعه آنذاك عند الله تعالى. وهذه الآيات الباهرات والمعجزات القاهرات، فيها الاختبار الواضح من الله تعالى الدّالّ على أنّ بني إسرائيل موضع تمحيصٍ من الله تعالى، أيشكرون على السّراء أم يكفرون. أيصبرون على الضرّاء أم يجزعون.

(٣)

"كفّار مكّة المنكرون للبعث ليسوا خيراً من المنكرين السّابقين الّذين أهلكهم الله تعالى. وعذاب المجرمين في النّار أليم، وثواب المتّقين في الجنّة مقيم"

الآيات (٣٤-٥٩)

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

إنّ هؤلاء ليقولون: إنّ هؤلاء المشركين من قومك يا محمّد ليقولون[1].

إن هي إلاّ موتتنا الأولى: ما هي إلاّ موتتنا الأولى[2] الّتي نموتها وهي الموتة الأولى[3].

وما نحن بمنشرين: بعد مماتنا ولا بمبعوثين[4].

أهم خير أم قوم تبّع: أهؤلاء المشركون يا محمّد من قومك خير أم قوم تبّع، يعني تُبّعاً الحِمْيريّ[5] وهم سَبَأ، وقد كانوا عرباً من قحطان، كما أنّ هؤلاء عرب من عدنان. وقد كانت حِمْير، وهم سبأ، كلّما مَلَكَ فيهم رجلُ سَمَّوْه تُبعا، كما يقال : كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الرّوم، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، والنّجاشي لمن ملك الحبشة، وغير ذلك أعلام الأجناس[6].

قال قتادة: ذُكر لنا أنّ كعباً كان يقول في تُبّع: نُعِتَ نَعْتَ الرّجل الصّالح، ذمّ الله تعالى قومه و لم يذمّه. قال: وكانت عائشة تقول: لا تسبّوا تبعاً فإنّه قد كان رجلاً صالحاً[7].

---

[1] تفسير الطّبري ٧٦/٢٥.

[2] الجلالين، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٧٣/١١.

[3] تفسير الطّبري ٧٦/٢٥.

[4] تفسير الطّبري ٧٦/٢٥.

[5] تفسير الطّبري ٧٦/٢٥.

[6] تفسير ابن كثير ٢٤٢/٧.

[7] تفسير ابن كثير ٢٤٤/٧، وتفسير الطّبري ٧٧/٢٥.

أهلكناهم إنّهم كانوا مجرمين: يقول: فليس هؤلاء بخيرٍ من أولئك فنصفح عنهم ولا نهلكهم وهم بالله كافرون، كما كان الّذين أهلكناهم من الأمم قبلهم كفّارا[1].

إنّ هؤلاء المشركين من قومك يا محمّد ليقولون: ما هي إلاّ موتتنا الأولى وما نحن بمبعوثين بعدها، فليس ثمّة بعث ولا حساب، ثواب ولا عقاب. وإمعاناً من المشركين في الضّلال والعناء يقولون للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين: إن كنتم صادقين بأنّ هنالك حياةً بعد الموت فأتوا بآبائنا أحياء مرّةً أخرى دليلاً على قولكم بأنّ ثمّة بعثاً وجزاءً. ولا يخفى أنّ المشركين يغالطون لأنّ البعث الّذي يطلبونه في هذه الحياة الدّنيا والبعث على حقيقته يوم القيامة.

هل يظنّ كفّار مكّة المصرون على كفرهم وعنادهم أنّهم خير من قوم تبّعٍ الحِمْيريّ القحطانيّ ومن الّذين مِنْ قبلهم الّذين أهلكهم الله تعالى بسبب كفرهم وإجرامهم. إنّ كفّار مكّة ليسوا خيراً من أولئك الأقوام السّابقين الكافرين.

إنّ على كفّار مكّة أن يبادروا إلى التّوبة النّصوح والإيمان وإلاّ كان الهلاك مصيرهم كما كان مصير الأشرار السّابقين الّذين يشاركهم كفّار مكّة في الشّرك والإجرام والعناد.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

وما خلقنا السّموات والأرض وما بينهما لاهين عابثين لاعبين. ما خلقنا السّموات والأرض وما بينهما إلا بالحقّ وكي يستدلّ أولو العقول الرّاجحة بذلك على قدرتنا

---

[1] تفسير الطّبري ٢٥/٧٧ .

المطلقة على إعادة الخلق كما بدأناه، وعلى البعث والحساب، الثّواب في حقّ المؤمنين، العقاب في حقّ الكافرين. إنّ أكثر النّاس للأسف الشّديد، وهم المشركون، لا يعلمون هذه الحقائق الجليّة، ولا يستدلّون بهذه الآيات الباهرات على القدرة المطلقة للذّات العليّة.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

ميقاتهم: الميقات الوقت المضروب للشّيء، والوعد الّذي جُعِل له وقت[1].

لا يغني مولىً عن مولى : بقرابةٍ أو صداقة[2].

شيئاً: من العذاب[3].

إنّ يوم القيامة الّذي يفصل الله تعالى فيه بين المؤمنين والكافرين، المحقّين والمبطلين، وقت مضروب للخلائق أجمعين، من أجل الحساب والجزاء، الثّواب والعقاب.

في ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود لا يغني مولى عن مولىً بقرابةٍ أو نسبٍ أو صداقة ولا ينفعه بشيء ولا هم يُنْصَرون بصرف العذاب عنهم أو تخفيفه. إلا من رحمه الله تعالى فهداه إلى توحيده والإيمان به وعمل الصّالحات فإنّ المؤمن يغني بإذن الله تعالى عن المؤمن شيئاً بأن يشفع المؤمن الّذي رضي الله تعالى عنه للمؤمن إذا أذن الله تعالى بذلك. إنّ الله تعالى هو العزيز الغالب المنتقم من الكافرين، البَرُّ الرّؤوف الرّحيم بأوليائه المؤمنين.

---

[1] مفردات الرّاغب الأصفهانى: "وقت" ٦٨٦/٢ .

[2] الجلالين.

[3] الجلالين.

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾

إنّ شجرة الزّقّوم : عبارة عن أطعمةٍ كريهة في النّار[1].

وهي من أخبث الشّجر المرّ بتهامة ينبتها الله تعالى في الجحيم[2].

طعام الأثيم: ذي الإثم الكبير[3] في قوله وفعله وهو الكافر[4].

كالمُهْل: دُرْدِيّ الزّيت[5] وهو عَكَر الزّيت[6] الّذي يرسب أسفله[7].

الحميم: الماء الّذي قد أوقد عليه حتّى تناهت شدّة حره. وقيل حميم وهو محموم لأنّه مصروف من مفعول إلى فعيل[8].

فاعتلوه: فادفعوه وسوقوه. يقال منه عتله يَعْتِله عتلا إذا ساقه بالدّفع والجذب[9].

سواء الجحيم: وسط الجحيم[10].

---

[1] مفردات الرّاغب الأصفهاني: "زقم" ٢٨١/١.

[2] الجلالين.

[3] الجلالين.

[4] تفسير ابن كثير ٢٤٥/٧.

[5] تفسير الطّبري ٧٨/٢٥.

[6] تفسير الطّبري ٧٩/٢٥ وتفسير ابن كثير ٢٤٥/٧.

[7] المعجم الوسيط: "الدّرديّ".

[8] تفسير الطّبري ٧٩/٢٥.

[9] تفسير الطّبري ٨٠/٢٥.

[10] تفسير الطّبري ٨٠/٢٥.

ذق إنّك أنت العزيز الكريم : بزعمك[1]، عن ابن عبّاس : أي لست بعزيزٍ ولا كريم[2] يقال له: ذلك على وجه التّهكّم والتّوبيخ[3].

إنّ شجرة الزّقوم، وهي شجرة من أخبث الشّجر المرّ الّذي يعرفه العرب، طعام الطعام الشخص الكافر الكثير الإثم في أقواله وأفعاله. وشجرة الزّقوم رمز للأطعمة الكريهة الّتي يُكْرَه الكافر على ازدرادها. وهذا النّوع من الطّعام يشبه ما رسب أسفل الزّيت الأسود واستقرّ في قعره.

ويزيد عليه سوءاً أنّه حار بطبعه يغلي في البطون كالماء الّذي اشتدّ غليانه، وتناهى حرّه.

ويقال لخزنة جهنّم خذوا هذا الكافر الأثيم أخذاً عنيفاً، وادفعوه في قفاه وجرّوه بغلظةٍ إلى وسط الجحيم وأعماق النّار. ثمّ صبّوا فوق رأسه من عذاب ذلك الماء الّذي اشتدّ غليانه. وهذا المعنى قد فصّلته سورة الحجّ في قوله عزّ من قال[4]:

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾

ويقال لذلك الكافر الكثير الآثام على سبيل التّهكّم والسخرية والتّوبيخ: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ حسب زعمك في الدّنيا، ولست في الآخرة عزيزاً ولا كريماً بل مهيناً حقيراً، بدليل هذا العذاب الّذي أنت فيه والذّلّ والهوان.

---

[1] الجلالين.

[2] تفسير ابن كثير ٢٤٦/٧.

[3] تفسير ابن كثير ٢٤٦/٧.

[4] الآيات ١٩-٢٢.

إنّ هذا العذاب الحقّ الّذي سوف تصادفونه يوم القيامة أيّها المشركون هو الّذي كنتم تشكّون فيه وتنكرونه في الحياة الدّنيا.

وقد بيّنت سورة الصّافات بعض صفات شجرة الزّقّوم الّتي يملأ أهل النّار بطونهم منها ويشربون من الماء الّذي تناهى حرّه ما يختلط بذلك الطّعام. قال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾

﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾.

في مقام: في موضع إقامة[1].

من سندس: ما رقّ من الدّيباج[2].

وإستبرق: ما غلظ من الدّيباج[3].

متقابلين: أي أنّهم في الجنّة يقابل بعضهم بعضاً بالوجوه ولا ينظر بعضهم في قفا بعض[4].

---

[1] تفسير الطّبري ٨١/٢٥.

[2] تفسير الطّبري ٨١/٢٥.

[3] تفسير الطّبري ٨١/٢٥.

[4] تفسير الطّبري ٨١/٢٥.

وزوّجناهم بحور: هنّ النّقيّات البياض واحدتهنّ حوراء[1].

عين: جمع عيناء وهي العظيمة العينين من النّساء[2].

يدعون فيها بكلّ فاكهة: يطلبون من الخدم في الجنّة أن يأتوا بكل فاكهة[3].

آمنين: من انقطاع ذلك عنهم ونفاذه وفنائه ومن غائلة أذاه ومكروهه[4].

لا يذوقون فيها الموت إلاّ الموتة الأولى: لا يذوق هؤلاء المتّقون في الجنّة الموت بعد الموتة الأولى الّتي ذاقوها في الدّنيا[5].

إنّ الّذين اتّقوا عذاب الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النّواهي، والّذين بلغوا مرتبة التّقوى الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك أولئك في مقامٍ رفيع أمين، ومكانٍ سامٍ آمنٍ من كلّ سوء. إنّهم في جنّات النّعيم، حيث تتدفّق العيون الجارية، ويلبسون مارقّ من الدّيباج وما غلظ منه، ويقابل بعضهم بعضاً بسبب دوران الأسرّة فلا يرى الواحد قفا الآخر. الأمر كذلك من النعيم المقيم والملك الكبير، وزوّجناهم بالحور العِين النّقيّات البياض الواسعات الأعين. يطلبون من الخدم في الجنّة أن يأتوا بكلّ فاكهةٍ، آمنين من انقطاع ذلك عنهم ونفاذه ووصول أدنى أذى إليهم. لا يذوقون في الجنّة الموت إلاّ الموتة الأولى في الدّنيا. ووقاهم ربّهم جلّ وعلا عذاب النّار، فضلاً من ربّك على هؤلاء المتقين ونِعْمة. ذلك هو الفوز العظيم حقّا.

---

(1) تفسير الطّبري ٨١/٢٥.

(2) تفسير الطّبري ٨١/٢٥.

(3) الجلالين ، وتفسير ابن كثير ٢٤٧/٧.

(4) تفسير الطّبري ٨٢/٢٥.

(5) تفسير الطبري ٨٢/٢٥.

ثبت في الصّحيحين أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: يؤتى بالموت في صورة كبشٍ أملح[1].

بين الجنّة والنّار ثمّ يذبح ثمّ يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت. ويا أهل النّار خلود فلا موت[2].

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

فإنّما يسّرناه بلسانك: فإنّما سهّلنا قراءة هذا القرآن الّذي أنزلناه إليك يا محمّد بلسانك[3].

لعلّهم يتذكّرون: ليتذكّر هؤلاء المشركون الّذين أرسلناك إليهم بعبره وحججه، ويتّعظوا بعظاته، ويتفكّروا في آياته إذا أنت تتلوه عليهم[4].

فارتقب: فانتظر أنت يا محمّد الفتح من ربّك، والنّصر على هؤلاء المشركين بالله من قومك من قريش[5].

إنّهم مرتقبون: إنّهم منتظرون عند أنفسهم قهرك وغلبتك بصدّهم عمّا أتيتهم به من الحقّ من أراد قبوله واتّباعك عليه[6].

---

(1) كبش أملح: خالط بياضَه سواد.
(2) تفسير ابن كثير ٢٤٧/٧.
(3) تفسير الطّبري ٨٣/٢٥.
(4) تفسير الطّبري ٨٣/٢٥.
(5) تفسير الطّبري ٨٣/٢٥.
(6) تفسير الطّبري ٨٣/٢٥.

فإنّما يسّرنا هذا الكتاب العزيز بلسانك يا محمّد وسهّلناه بلسان قريش وسائر العرب، لعلّهم يتذكّرون حينما تتلوه عليهم، ويتّعظون حينما يمّر على مسامعهم. فارتقب يا محمّد ما يحلّ بهم من عذاب، وانتظر المصير السّيّئ الّذي سوف يؤولون إليه إن لم يؤمنوا ويتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحا، إنّهم متربّصون بك الدّوائر، ومنتظرون أن تحلّ بك المصائب.

ولا يخفى أنّ الأمر للمصطفى - صلّى الله عليه وسلم - بالارتقاب والانتظار قبل الأمر بالجهاد الّذي كان بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة.

** تعقيب :

نودّ أن نشير في هيئة نقاطٍ إلى بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة:

١- سورة الدّخان من المكّيّ من القرآن الكريم الّذي نزل على المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - قبل الهجرة[١].

٢- عدد آيات السّورة الكريمة تسع وخمسون آية. وعدد كلماتها ثلاثمئة وأربعون كلمة. وعدد حروفها ألف وأربعمئة وأربعون حرفاً[٢].

٣- تسمّى السّورة الكريمة سورة الدّخان لقول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة العاشرة: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ} كما تُسَمَّى حم الدّخان[٣] لابتدائها بالحرفين المقطّعين اللذين تبدأ بهما كلّ سور آل حم السّبع.

٤- سورة الدّخان خامس سور آل حم السّبع الّتي رتّبت في المصحف الشّريف وفق ترتيب نزولها[٤].

٥- تتّفق سورتا الزّخرف والدّخان في الآيتين الكريمتين الأوليين. قال تعالى ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾

٦- عن طريق الاستعراض السّريع لأهمّ قضايا السّورة الكريمة يتبيّن بإذن الله تعالى وحدتها العضويّة، والتّرابط بين قضاياها، والمحور الّذي تدور حوله السّورة الكريمة.

---

[١] انظر الإتقان ٤٣/١، وتفسير ابن كثير ٢٣١/٧، والجلالين وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٧٨/٢٥.

[٢] تفسير وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٧٨/٢٥.

[٣] تفسير ابن كثير ٢٣١/٧.

[٤] الإتقان ٤٣/١.

جرياً على عادة كلّ سور آل حم تبدأ السّورة الكريمة بالحرفين المقطّعين: {حمٓ} وجرياً على عادة كلّ السّورة الكريمة الّتي تبدأ بالحروف المقطّعة في الانتصار للقرآن الكريم على الفور أو على التّراخي، أو على الفور والتراخي معاً، تنتصر السّورة الكريمة للقرآن الكريم على الفور، وعلى التّراخي في الآية الكريمة قبل الأخيرة من السّورة الكريمة في قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ وهكذا يكون القرآن الكريم أحد موضوعات السّورة الكريمة.

بعد الحرفين المقطّعين: {حمٓ} يُقْسِم الحقّ جلّ وعلا بالكتاب العزيز المبين عن معانيه ومراميه. لقد أنزل الله تعالى هذا الكتاب العزيز في ليلةٍ مباركة، هي ليلة القدر من شهر رمضان المبارك بنصّ القرآن الكريم. والله تعالى أنذر بهذا الكتاب العزيز. وبذلك يكون الإنذار الطّابع الغالب على السّورة الكريمة. وقد جاء التّبشير في ختامها أثناء الحديث عن نعيم المتّقين المقيم في جنّات النعيم. وفي تلك الليلة المباركة الّتي نزل فيها القرآن الكريم من اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا جملةً واحدةً يقضي الله تعالى كلّ أمرٍ محكم ويفصل من اللوح المحفوظ إلى الكَتَبَة أمر السَّنَةِ وما يكون فيها من الآجال والأرزاق والأعمال وما إلى ذلك .

لقد أمر الله تعالى بذلك أمراً من عنده عزّ وجلّ. إنّه جلّ وعلا كان دائماً وأبداً مرسلاً رحمةً من عنده بعباده، ومِنْ أبهى حُلَل الرّحمة إرسال المرسلين، وإرسال محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم رحمةً للعالمين، وخاتماً للنّبيّين، وزعيم أولي العزم من المرسلين، عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين. إنه عزّ وجلّ هو السّميع العليم، وربّ السّموات والأرض.

إنّ كفّار مكّة الّذين يقرّون بتوحيد الرّبوبيّة ويعترفون بأنّ الله تعالى خالق كلّ شيءٍ ومليكه ومدبّره، إن كانوا موقنين بذلك فعليهم الإيقان برسالة محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم الّذي يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، وبذلك يقرّون بتوحيد الألوهيّة كما يقرّون بتوحيد الرّبوبيّة الّذي لا يكفي وَحْدَه.

إنّه لا إله إلاّ هو يحيي ويميت ربّكم أيّها المشركون وربّ آبائكم الأوّلين. الحقيقة أنّ كفّار مكّة في شكّهم من رسالة محمّدٍ - صلّى الله عليه وسلّم - يلعبون، وفي ارتيابهم من الدّعوة إلى إفراد الله تعالى بالعبادة يتحيّرون.

لقد دعا محمّد صلّى الله عليه وسلّم على مشركي قريشٍ بسنين كسني يوسف عليه السلام فاستجاب الله تعالى دعاءه صلّى الله عليه وسلّم وأمره أن ينتظر يوم تأتي السّماء بدخانٍ مبين يراه المشركون بين السّماء والأرض دليل الجَدْب والجَهْد.

إنّ الدّخان حينما يغطّي أبصار المشركين يقولون هذا عذاب أليم. ويسألون الله تعالى أن يكشف عنهم العذاب زاعمين أنّهم مؤمنون. ويطلبون منه صلّى الله عليه وسلّم أن يدعو الله تعالى لهم.

ويقرّر السّياق أنّ القوم لم تنفعهم الموعظة الّتي جاءهم بها الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بلسانٍ عربيٍ مبين، فكيف تنفعهم ساعة نزول العذاب. لقد أعرضوا عنه صلّى الله عليه وسلّم وزعموا أنّه معلّم مجنون. ولقد استجاب الله دعاء حبيبه - صلّى الله عليه وسلّم- ، ووعد بكشف العذاب قليلاً، وأخبر أنّ القوم عائدون إلى الشّرك، وأنذرهم البطشة الكبرى الّتي تمثّلت في يوم بدر الّذي انتقم الله تعالى فيه من المشركين.

وهكذا يبدو الإنذار جليّاً في كلّ هذه المعاني.

ويصرّ المشركون على شركهم، وينذرهم الحقّ جلّ وعلا بعذابٍ يحلّ بهم على غرار العذاب الّذي كان من نصيب فرعون وقومه من القبط. إنّ فرعون وقومه أشدّ قوّةً من كفّار مكّة وقد أهلكهم الله تعالى بالغرق فعلى كفّار مكّة أن يأخذوا حذرهم.

لقد اختبر الله تعالى قوم فرعون قبل اختبار أهل مكّة، وجاءهم رسول كريم هو موسى – عليه السّلام –كما جاء أهل مكّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم. ومعروف أنّ دعوة الرّسل جميعاً واحدة. إنّ ما قاله موسى – عليه السّلام – لقومه قاله محمّد –صلّى الله عليه وسلّم– لقومه. لقد نجى الله تعالى موسى – عليه السّلام – وقومه المؤمنين من بني إسرائيل، وأهلك فرعون وقومه من القبط. في إنجاء الله تعالى موسى – عليه السّلام– والمؤمنين تبشير لمحمّدٍ – صلّى الله عليه وسلم – والمؤمنين. وفي إهلاك فرعون وقومه إنذار للمشركين. لقد ترك فرعون وقومه وراءهم كلّ صنوف النّعيم الّذي ورثه المؤمنون، ويوشك أن يترك كفّار مكّة للمؤمنين كلّ ما خوّلهم الله تعالى من نعم إن هم لم يؤمنوا ويتداركوا خطأهم قبل فوات الأوان.

إنّه على الرّغم من الإنذار الّذي يخلع القلوب لا يزداد كفّار مكّة إلاّ عتوّاً واستكباراً وإمعانا في إنكار البعث.

وإنّ السّورة الكريمة تعمل بعد ذلك من أجل حمل الكافرين على الإيمان بالبعث والعمل ليوم القيامة وإلاّ كان العذاب الأليم في وسط الجحيم. وهنا تفيض السّورة الكريمة في الحديث عن يوم القيامة من زاوية المجرمين في نار جهنّم، ومن زاوية المتّقين في جنّات النّعيم.

إنّ السّورة الكريمة تفصّل الحديث في عذاب المجرمين، كما تفصّل الحديث في ثواب المتّقين.

وتجاه إصرار الكافرين على شركهم وعنادهم وإنكار البعث تختم السّورة الكريمة بأمر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن ينتظر العذاب الأليم الّذي سوف يحلّ بالكافرين، وبإخباره بأنّ المشركين يتربصّون به عليه الصّلاة والسّلام الدّوائر.

وهذا التّربّص بالمشركين كان قبل الأمر بجهادهم الّذي كان بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة وفي السّنة الثّانية من الهجرة.

وهكذا يتبين الالتحام بين موضوعات السّورة الكريمة وقضاياه، كما يتبين أنّ قضيّة البعث بعد الموت المحور الّذي تدور حوله السّورة الكريمة.

٨- وصفت سورة الدّخان الليلة الّتي نزل فيها القرآن الكريم جملةً واحدةً من اللوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا بأنّها ليلة مباركة، ووُصِفَتْ تلك الليلة المباركة بأنّها يَقْضِي الله تعالى فيها إلى الكتبة أمر السَّنة من الآجال والأعمال والأرزاق وما إلى ذلك.

جاء في الآيتين الكريمتين الثّالثة والرّابعة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

٩- نستطيع أن نفهم من القول في الآية الكريمة السّابعة: {إن كُنتُم مُّوقِنِينَ} أنّ كفّار مكّة الّذين يقرّون بتوحيد الرّبوبيّة بحاجةٍ إلى الإقرار بتوحيد الألوهيّة. وجواب الشّرط محذوف. والمعنى، والله تعالى أعلم: إن كنتم موقنين أنّ الله سبحانه وتعالى خالق كلّ شيءٍ ومليكه ومدبّره فأيقنوا برسالة محمّدٍ - صلّى الله عليه وسلّم - الّتي تدعوكم إلى التّوحيد والإقرار بتوحيد الألوهيّة.

ويتبيّن أنّ الحديث عن توحيدي الرّبوبيّة والألوهية من القضايا الّتي عُنِيت بها سور آل حم.

١٠- تحدّثت سورة الدّخان على التّفصيل عن ابتلاء الله تعالى كفّار مكّة بالدّخان الّذي يغشى أبصار الكافرين، استجابةً لدعاء المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يأخذهم الله تعالى بسنين كسني يوسف. وأومأت السّورة الكريمة في الآية الكريمة السابعة عشرة إلى ابتلاء الله تعالى قوم فرعون من قبل وامتحانهم وذلك في القول: قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ثمّ إنّ موسى - عليه السّلام - دعا على الكافرين.

١١- يكاد يكون الأمر لموسى - عليه السّلام - بأن يترك البحر ساكناً على حاله، ويترك على كلّ من الجانبين ما يشبه الجبل الشّامخ من الماء القائم، يكاد يكون قد جاء في الآية الرّابعة والعشرين وَحْدها، وذلك في قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

١٢- في قول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة التّاسعة والعشرين: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ تبكيت وتقريع لفرعون وقومه. وفي قول الحقّ جلّ علا في الآية الكريمة التّاسعة والأربعين: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ تبكيت وتقريع للذي قال من زعماء مشركي قريش، وهو أبو جهل بن هشام، إنّه هو العزيز الكريم[1] ويكاد يكون هذا الأسلوب من صفات سورة الدّخان بين آل حم.

١٣-كفّار مكّة ليسوا أشدّ قوّةً من فرعون وقومه الّذين أغرقهم الله تعالى، وكذلك ليسوا خيراً من قوم تبّع والّذين من قبلهم من المشركين المجرمين على نحو ما بيّنت الآية الكريمة السّابعة والثّلاثون.

---

[1] انظر تفسير الطّبري ٢٥/٨٠.

١٤- من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده تقليب القول على وجوهه المختلفة، وتحوّل الحديث إلى القضايا المتعدّدة، من أجل حمل المشركين على الإيمان. وحينما لم تنجح كلّ الوسائل أمر الحقّ جلّ وعلا محمّداً - صلّى الله عليه وسلّم - أن يتربص بالمشركين الدّوائر وذلك في آخر آيات السّورة الكريمة.

١٥- تحدّثت السّورة الكريمة على التّفصيل عن عذاب المجرمين الأليم في النّار، وعن ثواب المتّقين في الجنّة.

١٦- نصّت الآية الكريمة السّادسة والخمسون على الموتة الأولى الوحيدة التّي يذوقها المؤمنون في الحياة الدّنيا. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾ ومن هذا المنطلق كانت نظرتنا إلى ما جاء على لسان كفّار مكّة في الآية الكريمة الخامسة والثّلاثين: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

١٧- في ضوء الاستعراض لموضوعات السّورة الكريمة وقضاياها يصحّ أن يقال: إنّ قضيّة البعث بعد الموت المحور الّذي تدور حوله سورة الدّخان المكّيّة الكريمة.

خامساً

سورة الجاثية

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ
﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا
عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ
﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ
﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ
لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ
بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ
رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ

وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ
ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ
رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ
جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ
كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا
يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ
نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ
وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن
يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ
وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا
تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ
كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا
كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا
نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

بين يدي التّفسير

(١)

"يصّر الكافرون على الإعراض عن آيات الكتاب العزيز وآيات الله تعالى الكونيّة و جحد النّعمة، فلهم عذاب مهين في الأولى و الآخرة"

الآيات (١-١٥)

تبدأ سورة الجاثية المكّيّة الكريمة بالحرفين المقّطعين الّذين تبدأ بهما كلّ سور آل حم: ﴿حمٓ ۝١﴾ و تتّفق سورة الجاثية مع سورة الأحقاف في الآية الكريمة الثّانية: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ و سبق أن تبيّن أنّ سورتي الزّخرف و الدّخان تتّفقان في الآية الكريمة الثّانية: قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ و الآية الكريمة الثّانية من سورة الجاثية تقرّر أنّ هذا الكتاب العزيز تنزيل الله تعالى العزيز الحكيم. و بذلك تنتصر السّورة الكريمة للقرآن الكريم، و ذلك على غرار كلّ السّور الكريمات الّتي تبدأ بالحروف المقطّعة.

و كما تنتصر السّورة الكريمة للقرآن الكريم على الفور تنتصر له على التّراخي. وكما كان في السّورة الكريمة احتفاء بآي الكتاب العزيز كان فيها احتفاء بآيات الله تعالى الكونيّة. و بذلك يكون حديث السّورة الكريمة عن الآيات الكونيّة من الوسائل لحمل الكافرين على توحيد الله تعالى و اتّباع محمّد صلّى الله عليه و سلّم، الّذي جعل الله تعالى القرآن الكريم آيته الكبرى.

إنّ في السّموات و الأرض لآياتٍ للّذين يؤمنون بالله تعالى ربّاً ، وبالإسلام ديناً، وبمحمّدٍ – صلّى الله عليه وسلّم – رسولاً، و بالقرآن الكريم هاديا. و في خلق الله تعالى لكم أيّها النّاس، وما ينشر في السّموات و الأرض من دابّةٍ تدبّ، وطائرٍ يطير، وسمكٍ يسبح، آيات لقومٍ يوقنون بأنّ بعد الموت بعثاً و جزاءً، ثواباً و عقابا. و في اختلاف اللّيل و النّهار سواداً وبياضاً، ذهاباً وإياباً، طولاً وقصرا، وما إلى ذلك، وفيما أنزل الله تعالى من السّماء من ماءٍ هو سبب الرّزق بفضل الله تعالى، فأحيا به عزّ و جلّ الأرض بالزّرع بعد موتها بالجدب، وفي تنويع الرّياح شمالاً وجنوباً ، صَباً ودبورا، آيات دالّات على وحدانيّة الله تعالى لقومٍ يعقلون آيات الله تعالى ويفهمون ما تدلّ عليه وما ينبغي أن تُفْضي إليه من توحيد الله تعالى.

تلك آيات الكتاب العزيز البيّنات نتلوها عليك يا محمّد بالحقّ فبأي حديث بعد آيات الله تعالى في هذا الكتاب العزيز و آياته الكونيّة يؤمنون و يصدّقون و يعتبرون.

وأصرّ كفّار مكّة على تكذيبهم و عنادهم فأنذرهم الله تعالى عذابه الشّديد و هلاكه الأكيد. ويل لكلّ كذّاب كثير الإثم قولاً و فعلاً. يسمع آيات الكتاب العزيز تُتْلَى عليه ثمّ يصرّ مستكبراً عن إفراد الله تعالى بالعبادة كأنّه لم يسمع تلك الآيات، بدلاً من أن يبادر إلى الإذعان و الإيمان، فبشّره يا محمّد و يا أيّها المؤمن بعذابٍ أليم. و إذا علم من آيات الله تعالى الكونيّة كشجرة الزّقّوم الّتي تخرج في أصل الجحيم اتّخذها موضع سخريته. أولئك لهم عذاب أليم في الدّنيا، و من ورائهم عذاب مهين في نار جهنّم و لا يغني عنهم ما كسبوا في الحياة الدّنيا من مالٍ ونَشَب، جاهٍ ونسب، ولا ما اتّخذوا من دون الله تعالى من أصدقاء و نصراء. و لهم عذاب عظيم. إنّ هذا القرآن الكريم هو عين الهدى. و الّذين كفروا بآيات ربّهم في القرآن الكريم و الكون العظيم لهم عذاب أليم، كالزّلزال الرّهيب تدميراً و إهلاكا.

ويستمرّ كفّار مكّة في إعراضهم عن آيات الله تعالى البيّنات وفي عنادهم . و تظلّ رحمة البرّ الرّحيم تلاحقهم فيلفت السّياق انتباههم إلى بعض نعم الله تعالى عليهم وعلى النّاس، ويمهلهم، ويحذّرهم. إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي سخّر لنا البحر، مِلْحاً وعذبا، لتَجري السّفن فيه، بأمره عزّ وجلّ، ولنبتغي من فضل الله تعالى بالصّيد والتّجارة وما إليهما، و لعلّنا نشكر لله تعالى نعمه العظيمة. و الله سبحانه و تعالى سخّر لنا كلّ ما في السّموات وما في الأرض جميعاً منه عزّ وجلّ وحده لا شريك له، فينبغي إفراده عزّ وجلّ بالعبادة. إنّ في كلّ ذلك لآياتٍ دالاّت على وحدانيّة الله تعالى لقومٍ يتفكّرون.

ولّما كان القتال غير مأذونٍ به بَعْدُ في هذه الفترة المكّيّة فإنّ الحقّ جلّ و علا يأمر حبيبه صلّى الله عليه وسلّم بأن يطلب من المؤمنين أن يغفروا للّذين لا يخافون نقم الله تعالى غفلةً منهم وغباءً، ليجزي الله تعالى يوم القيامة المشركين بسبب ما كانوا يكسبون في الحياة الدّنيا من آثام. إنّ عمل صالحاً فلنفسه ثواب إحسانه، ومن أساء فعليه عقاب إساءته، ثمّ إلى ربّكم تُرْجعون يوم القيامة للحساب والجزاء ، الثّواب أو العقاب.

(٢)

"الباغون يتّبعون أهواءهم، و الظّالمون بعضهم أولياء بعض، و المتقون يتّبعون هدى القرآن الكريم و الله تعالى وليّهم"

الآيات (١٦-٢٣)

قياساً على المواضع الكثيرة في القرآن الكريم الّتي يتّحول فيها الحديث إلى موسى – عليه السّلام –و قومه و معاناته – عليه السّلام – و بني إسرائيل من فرعون و قومه، يتحوّل السّياق إلى الحديث عن بني إسرائيل ونعم الله تعالى عليهم. وبذلك يكون الحديث عن بني إسرائيل من هذه الزّاوية بقصد تنبيه أمّة محمّد – صلّى الله عليه وسلّم– على وجوب قيامهم بالشّكر لله تعالى على نعمه العظيمة عليهم بهدايتهم إلى دين الإسلام، و ارسال خير الأنام – صلّى الله عليه وسلّم –، وإنزال الكتاب العزيز أحسن الكلام . إنّ على المسلمين أن يحذروا أن يكونوا كالّذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم و كان كثير منهم فاسقين.

لقد آتى الله تعالى بني إسرائيل قوم موسى – عليه السّلام– في المقام الأوّل الكتاب بمعنى التّوراة، و الحكم بمعنى الملك، و النّبوة فكلّ الأنبياء بعد إبراهيم – عليه السّلام – من ذرّيّه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم – عليهم السّلام –، باستثناء محمّد – صلّى الله عليه و سلّم – فإنّه من ذرّيّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام. كما أنّ الحقّ جلّ و علا رزق بني إسرائيل من الّطيبات و فضلهم على عالمي زمانهم. و إسرائيل هو الاسم الآخر ليعقوب – عليه السّلام –.

و قد آتى الله تعالى بني إسرائيل بيّنات من الأمر، و حججاً واضحاتٍ في الحلال والحرام، فما اختلفوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم الصّحيح، و ما تنازعوا إلاّ بسبب حسد بعضهم لبعض، و بغي بعضهم على بعض. إنّ ربّك يا محمّد سوف يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا يختلفون فيه.في الدّنيا من أمور الدّين.

ثمّ جعلناك يا محمّد على نبعٍ صافٍ جيّاشٍ من أمر دين الإسلام الّذي بعثتك به، وعلى شريعةٍ ثرّةٍ من الحنيفيّة السّمحة، فاتّبعها يا محمّد و أمر قومك بأن يتّبعوها، و لا تتّبع يا محمّد أنت و أمّتك أهواء الّذين لا يعلمون الحقّ جهلاً أو تجاهلاً. إنّهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً و لن ينفعوك، و من باب الأحرى ألاّ يغنوا عن أمّة محمّد شيئاً و لن ينفعوها.

و إنّ الظّالمين بعضهم أولياء بعض و الشّيطان وليهم، أمّا المتّقون فإنّ بعضهم أولياء بعض، و الله تعالى وليهم و مولاهم، و الله تعالى نعم الوليّ و المولى والنّصير.

و هذا القرآن الكريم نور بصائر المؤمنين، و هدىً من الضّلالة، ورحمة من الله تعالى لقومٍ بلغوا مرتبة الإيقان.

أم حسب الّذين ارتكبوا الآثام، و بخاصّةٍ الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى وهو الشّرك، أن نجعلهم كالّذين آمنوا و عملوا الصّالحات ، فتستوي حياة الفريقين في الأولى و الآخرة.

بئس حكماً حكمهم. إنّه لا يستوي أصحاب النّار و أصحاب الجنّة. إنّ أصحاب النّار هم الخاسرون في الأولى و الآخرة.

و إنّ أصحاب الجنّة هم الفائزون في الأولى و الآخرة.

إنّ الّذين يرتكبون الآثام لهم المعيشة الضيقة على الحقيقة في الأولى، و إن كان ظاهرها على خلاف ذلك، و يوم القيامة يحشرهم الله تعالى عمي الأبصار، و قد كانوا في الأولى عمي البصائر. و إنّ الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات لهم الحياة الطّيّبة على الحقيقة في الأولى ، و الحياة الطّيّبة في الآخرة.

وتظلّ رحمة الله تعالى تطارد الّذين شطّوا عن سواء السّبيل إنّ الله تعالى خلق السّموات و الأرض بالحقّ و العدل، و ليس عبثاً وباطلا، و لتُجْزَى كلّ نفسٍ يوم القيامة بما كبست في الدّنيا من خيرٍ أو شرّ، و هم لا يُظلمون بحذف حسنةٍ أو إضافة سيئة.

إنّ آفة الظّالمين أنّهم عبدوا أهواءهم. أفرأيت ذلك الّذي اتّخذ إلهه هواه ، فعبد ذلك الهوى، و أشرك مع الله تعالى سواه، و أضلّه الله تعالى في سابق علمه، و طبع على سمعه و قلبه، و جعل على بصره غطاءً فلا يبصر نور الهدى، أفرأيت مَنْ ذلك حالهُ مَنْ يهديه إلى سواء السّبيل من بعد ما أضلّه الله تعالى لأنّه يستحقّ ذلك؟ أغفلتم أيّها المشركون عن كلّ تلك المواعظ فلا تتذكّرون.

إنّ كلّ آيات الله تعالى في الكتاب العزيز و في الكون لم يأبه لها المشركون، و أصرّوا على إنكار البعث.

(٣)

"يُدْخل الله تعالى الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات جنّات النّعيم، و يدخل المنكرين للبعث المستهزئين نار الجحيم"

الآيات (٢٤-٣٧)

يكاد يكون إنكار المشركين للبعث المحور الّذي تدور حوله السّورة الكريمة و أكبر موضوعاتها. إنّ المشركين يصرّون على إنكار البعث، و إنّ الثّلث الأخير من السّورة الكريمة يُعْنى بقضية البعث عنايةً بالغة. و قال المشركون ما هي إلاّ حياتنا الدّنيا يموت الكبار و يحيا الصغّار و ما يهلكنا إلاّ الدّهر و مرور اللّيالي و الأيّام. و ليس لهم بذلك الّذين يقولون أدنى علم، و ما هم إلاّ يظنّون، و إنّ الظّنّ لا يُغْني من الحقّ شيئا.

وإذا تُتْلى عليهم آيات الله تعالى البيّنات الّتي تتحدّث عن البعث ما كان حجَّهُمْ إلاّ أن قالوا ائتوا بآبائنا أحياء في هذه الحياة الدّنيا إن كنتم صادقين في ادّعائكم بأنّ ثمّة بعثا. و هذه المغالطة سبق أن أشارت إليها الآية الكريمة السّادسة والثّلاثون من سورة الدّخان، و هي مغالطة لأنّ البعث في الدّار الآخرة و ليس في هذه الدّار الأولى. قل لهم يا محمّد و يا أيّها المؤمن إنّ الله سبحانه و تعالى هو الّذي يحييكم في هذه الدّنيا ثمّ يميتكم ، ثمّ يقودكم و ينقلكم إلى يوم القيامة الّذي لا شكّ فيه، و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون أنّ بعد الموت حياةً و جزاءً و لله تعالى ملك السّموات و الأرض في الأولى والآخرة، و يوم تقوم السّاعة يخسر في ذلك اليوم الّذين يبطلون الحقّ بباطلهم. و ترى أيها الإنسان كلّ أمّةٍ جاثيةً على الرّكب في ذلك اليوم المهيب، الموقف العصيب. وكلّ أمّةٍ تُدْعَى إلى كتاب أعمالها و يقال لأفرادها: اليوم تنالون جزاء ما كنتم تعملون في

الدّنيا. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحقّ. إنّا كنّا نأمر الكتبة من الملائكة أن يكتبوا ما كنتم تعملون.

فأمّا الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات فيدخلهم ربّهم في جنّته ، ذلك هو الفوز المبين حقّا. و أمّا الّذين كفروا فيقال لهم: ألم تكن آيات الله تعالى تُتْلَى عليكم فاستكبرتم عن الإيمان و كنتم قوماً مجرمين بِشِرْككم.

وإذا قيل لأولئك المشركين إنّ وعد الله حقّ بقيام السّاعة و إنّ يوم القيامة لا شكّ فيه قلتم أيهّا المشركون: ما ندري ما يوم القيامة و لا علم لنا بالسّاعة. ما نظنّ إلاّ ظنّاً و ما نحن بمستيقنين بالبعث بعد الموت. و ظهر لهم يوم القيامة سيئات ما عملوا في الدّنيا من آثام ، و نزل بهم ما كانوا يستهزئون به عذاب. و قيل لهم: اليوم نترككم في العذاب كما تركتم لقاء يومكم هذا و نسيتموه و لم تعملوا من أجله، و مأواكم نار جهنّم و ما لكم من ناصرين يعرفون العذاب عنكم أو يخفّفونه. إنّ ذلكم العذاب المهين في نار الجحيم بسبب أنّكم اتّخذتم آيات الله تعالى في الكتاب العزيز موضع سخريتكم، و غرّتكم الحياة الدّنيا بزخرفها عن العمل لما بعد الموت ، فاليوم لا تخرجون من نار جهنّم ، و لا يُطْلَب منكم أن تعملوا صالحاً يَرْضَى الحقُّ جلّ و علا بسببه عنكم ، لأنّ الدّار الآخرة هي دار الجزاء و ليس العمل.

وإنّ لسان الحال يطلب من كلّ منكرٍ للبعث أن يبادر إلى الإيمان و عمل الصّالحات قبل فوات الأوان. فلله تعالى الحمد و الثناء الحسن، ربّ السّموات و ربّ الأرض ربّ العالمين.

و لله تعالى و حده دون سواه الكبرياء و العزّة و السّلطان في السّموات والأرض، وهو العزيز في ملكه الحكيم في صنعه و تدبيره و قَدَره و في كلّ شيء ، لا ربّ غيره ، و لا معبود بحقٍّ سواه سبحانه.

التفسير

(١)

((يصرّ الكافرون على الإعراض عن آيات الكتاب العزيز و آيات اللّه تعالى الكونيّة و جحد النّعمة، فلهم عذابٌ مهينٌ في الأولى و الآخرة))

الآيات (١-١٥)

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾ تنزيل هذا الكتاب العزيز، والقرآن المجيد، من الله تعالى، العزيز في ملكه، المعزّ لأوليائه المؤمنين، المذلّ لأعدائه الكافرين، الحكيم في صنعه، و تدبيره و قدره و في كلّ شيء.

ويتبيّن الانتصار للقرآن الكريم بعد الحرفين المقطّعين اللذين تبدأ بهما السّورة الكريمة ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾ كما يتبيّن أنّ السّورة الكريمة سوف تتحدّث لاحقاً عن هذا الكتاب العزيز.

ويلحظ أنّ كلاً من السّورتين الكريمتين من آل حم ، الجاثية و الأحقاف ، قد بدأتا بهاتين الآيتين الكريمتين.

﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾

وما يبث من دابّة: و ما يفرّق في الأرض من دابّةٍ تدبّ عليها من غير جنسكم [1] وأصل البثّ التّفريق و إثارة الشّيء كبثّ الرّيح التّراب، وبثّ النّفس ما انطوت عليه من الغمّ و السّرّ[2] وما يبثّ في السّموات و الأرض من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع ، من الملائكة والجنّ والإنس ، والدّوابّ والطّيور والوحوش والسّباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوّعة [3].

---

[1] تفسير الطّبري ٨٤/٢٥.

[2] مفردات الرّاغب الأصفهاني : " بثّ" ٤٦/١.

[3] تفسير ابن كثير ٢٤٩/٧.

من رزق: من غيث [1] و مطر ، لأنّه سبب الرّزق[2].

وتصريف الرّياح: شمالاً مرّة و جنوباً أخرى صَبَاً أحياناً و دبوراً أخرى لمنافعكم[3].

فبأيّ حديثٍ بعد الله و آياته يؤمنون : فبأيّ حديث بعد حديث الله هذا يتلوه عليهم و بعد حججه عليهم و أدلّته الّتي دلّهم بها على وحدانيّته من أنّه لا ربّ لهم سواه يصدقون إن هم كذّبوا لحديثه وآياته[4].

إنّ في السّموات من الشّمس والقمر والنّجوم والكواكب وما على ذلك، وإنّ في الأرض من الجبال والسّهول والبحار والأنهار والعيون والآبار والزّروع والأشجار وما يدبّ على الأرض ، ويسبح في الماء، ويطير في الهواء، وما إلى ذلك، لآياتٍ للمؤمنين، الّذين يؤمنون بالله تعالى ربّاً ، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن الكريم منهجاً ، وبمحمّدٍ صلّى الله تعالى عليه وسلّم نبيّاً ورسولا.

وفي خلقكم أيّها النّاس، و ما يفرّق الله تعالى في السّموات و الأرض من دابّةٍ ومن مخلوقاتٍ مختلفة الأجناس والأنواع، من ملائكةٍ وجنٍّ وإنس، وما يدبّ على ظهر الأرض من دابّة ويطير في الهواء، ويسبح في الماء، لآيات لقومٍ بلغوا مرتبة الإتقان بأن بعد هذه الحياة الأولى حياةً أخرى يكون فيها الحساب و الجزاء، الثّواب والعقاب.

وفي اختلاف اللّيل والنّهار ، سواداً وبياضا، طولاً وقصرا، ذهاباً وإياباً، وما إلى ذلك ، وفيما أنزل الله تعالى من السّماء من مطرٍ هو بفضل الله تعالى سبب الرّزق

---

[1] تفسير الطّبري ٢٥/٨٤.

[2] الجلالين.

[3] تفسير الطّبري ٢٥/٨٤، والصّبا : ريح مهبّها من مَشْرِق الشّمس إذا استوى اللّيل و النّهار (مؤنثة) والدّبور : ريح تهبّ من المغرب و تقابل الصبا.

[4] انظر تفسير الطّبري ٢٥/٨٥.

فأحيا جلّ و علا بذلك المطر الأرض فأنبتت من كلّ زوجٍ بهيج، بعد موتها بالجدب، وفي تصريف الرّياح وتنويع جهات هبوبها شمالاً مرةً، وجنوباً أخرى، وصباً تارةً ودبوراً أحياناً، و ما إلى ذلك، آيات لقوم يدركون بعقولهم أنّ الفعّال لكلّ ذلك هو الله تعالى الّذي لا إله إلاّ هو قيّوم السّموات و الأرض.

تلك هي آيات الله تعالى في هذا الكتاب العزيز نتلوها عليك يا محمّد بالحقّ، ونقصّها عليك بالصّدق، فبأيّ حديثٍ بعد آيات الله تعالى في هذا الكتاب العزيز، وآياته جلّ و علا البيّنات في هذا الكون وحججه البالغات يؤمن كفّار مكّة ومن شاكلهم من الكافرين الّذين كذّبوا القرآن ، وجحدوا رسالة خير الأنام صلّى الله عليه و سلّم، و أشركوا مع الله تعالى سواه.

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَـٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

ويل : عذاب وهلاك[1].

أفّاك: كذّاب[2].

أثيم: كثير الإثم[3] في فعله وقيله[4].

---

[1] لسان العرب : " ويل".

[2] تفسير الطّبري ٢٥/٨٥.

[3] الجلالين.

[4] تفسير ابن كثير ٧/٢٥٠.

كأن لم يسمعها : كأن مخفّفة من الثّقيله، و اسمها ضمير الشّأن محذوف [1] أي كأنّه ما سمعها [2].

من ورائهم جهنّم: من بين أيديهم [3] أي أمامهم لأنّهم في الدّنيا[4].

من رجزٍ أليم: من عذاب موجع [5] وأصل الرّجز الاضطراب، والرّجز هنا كالزّلزلة[6].

عذاب شديد و هلاك أكيد لكلّ كذّابٍ كثير الإثم قولاً وفعلاً يَسْمَع آيات الله تعالى تُتْلَى عليه، وآي الذّكر الحكيم تُقْرأ عليه، وبدلاً من أن يؤمن ويذعن كما يقول العقل والمنطق هو يكفر ويستكبر ، ويصرّ على استكباره وعلى استنكافه عن عبادة الله تعالى كأنّه لم يسمع آيات القرآن الكريم تُتْلَى عليه فبشّره يا محمّد ويا أيّها المؤمن بعذابٍ أليم. لقد قوبل استهزاء المشرك بآيات الله تعالى بالاستهزاء وعومل بالمثل، وها هو ذا يُبَشّر بالعذاب الأليم.

ويزداد المشرك استهزاءً و يزداد عذاب الله تعالى له فيكون عذاباً مهيناً. إنّ هذا المشرك إذا علم من آيات الله تعالى البيّنات والكونيّة شيئاً اتّخذها هزواً وجعلها موضع سخريته. إنّ لأولئك عذاباً مهيناً في الآخرة، و قد يكون العذاب المهين في الأولى أيضاً. ومن أولئك الّذين اتّخذوا آيات الله تعالى هزواً أبو جهل بن هشام. لقد تحدث القرآن

---

[1] الجدول في إعراب القرآن و صرفه ٣٨٤/١١.

[2] تفسير ابن كثير ٢٥٠/٧.

[3] تفسير الطبري ٨٥/٢٥.

[4] الجلالين.

[5] تفسير الطّبري ٨٦/٢٥.

[6] انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : " رجز" ٢٤٩/١.

الكريم عن شجرة الزّقّوم في سورة الصّافّات[1] وسورة الدّخان[2] وسورة الواقعة[3] ووصفت سورة الإسراء [4] شجرة الزّقّوم بأنّها الشّجرة الملعونة في القرآن . وإنّ أبا جهل حين نزل قول الحقّ جلّ وعلا من سورة الدّخان [5]: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ ﴾ دعا بتمر وزبد فقال: تزقّموا من هذا. ما يدعكم محمد إلا شهدا[6] وقال : إنّ محمداً يخوفنا شجرة الزّقّوم، هاتوا الزُّبد والتمر وتزقموا، أي كلوا [7].

من وراء هؤلاء المكذّبين المستكبرين المستهزئين المصرّين على عنادهم نار جهنّم الّتي يدخلونها يوم القيامة. و ربّما كان التّعبير بالوراء عن المستقبل يوم القيامة لأنّه في حكم المجهول و كأنّ المرء يسير إلى ورائه فيظهر أمامه ما كان غائباً عنه وراءه، و مجهولاً عنده خلفه. و الله تعالى أعلم.

ولايُغْني عن أولئك الّذين يخلون نار جهنّم ما كسبوا في حياتهم الدّنيا من مالٍ وولدٍ و جاهٍ و ما إلى ذلك ، و لا الّذين اتّخذوهم أولياءهم من دون الله تعالى ، من الآلهة الزّائفة، و السّادة السّفهاء. و لهم عذاب عظيم في نار الجحيم.

هذا القرآن الكريم و الذّكر الحكيم هدىً من الضّلالة.

---

[1] الآية ٦٢.

[2] الآية ٤٣ .

[3] الآية ٥٢.

[4] الآية ٦٠.

[5] الآية ٤٣و٤٤.

[6] تفسير الطّبري ٢٥و٨٥.

[7] النّهاية في غريب الحديث و الأثر ٣٠٧/٢.

والّذين كفروا بآيات ربّهم جلّ و علا في القرآن الكريم، و في هذا الكون العظيم، لهم عذاب أليم، من رجزٍ شديد، و اضطرابٍ أكيد، و زلزالٍ مريع.

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ .

الله تعالى هو الّذي سخّر لكم أيّها النّاس البحر لتجري فيه السّفن الّتي يشبه بعضها الجبال ضخامةً و فخامةً بأمره جلّ و علا. و هذا الماء الّذي يحمل بإرادة الله تعالى السّفن بأنواعها و أحجامها المختلفة، لا يستطيع بإرادة الله تعالى أن يحمل على ظهره أصغر حصاة، بل لابدّ لها أن تستقر في قاعه. و من أهمّ الأغراض من ركوب البحر ابتغاء شيءٍ من فضل الله تعالى بالسّفر للتجارة والصّيد وما إلى ذلك.

و لعلّ النّاس يدركون هذه النّعمة و يقدرونها حقّ قدرها و يبادرون إلى الشّكر لله تعالى عليها بإفراده عزّ و جلّ بالعبادة و بإخلاص العبادة له جلّ و علا.

وبالإضافة إلى الماء الّذي سخّره الله تعالى للنّاس و الّذي يغطّي أكثر سطح الأرض سخّر الله تعالى لنا كلّ ما في السّموات من شمسٍ وقمرٍ ونجومٍ وكواكب وما إلى ذلك، وكلّ ما في الأرض من سهلٍ وجبل، نبتٍ و شجر،بحرٍ ونَهَر، حيوانٍ برّيّ وبحريّ ، طائرٍ يطير بجناحيه ودابّةٍ تدبّ على الأرض و ما إلى ذلك. إنّ جميع ذلك قد سخّره الله تعالى وحده دون سواه للإنسان الّذي كرّمه الله تعالى وحمله في البرّ والبحر ورزقه من الطّيبات وفضّله على كثير ممّن خلق تفضيلاً، فلعلّ هذا الإنسان يجزي الإحسان بالإحسان فيبادر إلى توحيد الله تعالى الغني عن كلّ ما خلق ومن خلق سبحانه.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

للذين لا يرجون أيّام الله : للذين لا يخافون بأس الله ووقائعه و نقمه إذا هم نالوهم بالأذى و المكروه[1] قال مجاهد: لا يبالون نعم الله أو نقم الله[2] و قد نزلت الآية الكريمة قبل أن يؤمر النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – بقتال أهل مكّة[3] والآية الكريمة بإجماع علماء التّفسير منسوخة[4].

قل يا محمّد للمؤمنين الّذين آمنوا بالله تعالى ربّاً، و بالإسلام ديناً، و بمحمّد – صلّى الله عليه و سلّم – رسولاً، و بالقرآن الكريم هادياً، يغفروا للذين لا يخافون نقم الله تعالى غفلةً منهم و غباءً عناداً منهم و استكبارا، ليجزي الله تعالى يوم القيامة قوماً، و يعذّب المشركين، و على رأسهم كفّار مكّة، بسبب ما كانوا يكسبون في الحياة الدّنيا من آثام.

والآية الكريمة منسوخة بالآيات الكريمات الّتي نزلت بعد الهجرة والّتي أذنت للمسلمين بالقتال.

من عمل صالحاً فلنفسه أحْسَن و له ثواب إحسانه، و من أساء فعليه عقاب إساءته ، ثمّ إلى ربّكم أيّها النّاس تُرْجعون يوم القيامة للحساب و الجزاء، الثّواب أو العقاب.

---

[1] تفسير الطّبري ٨٦/٢٥.

[2] تفسير الطّبري ٨٧/٢٥.

[3] معاني القرآن للفرّاء ٤٦/٣.

[4] تفسير الطّبري ٨٧/٢٥.

(٢)

((الباغون يتّبعون أهواءهم، و الظّالمون بعضهم أولياء بعض، و المتّقون يتّبعون هدي القرآن الكريم والله تعالى وليّهم))

الآيات (١٦-٢٣)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

الكتاب: التّوراة و الإنجيل[1].

والحكم: به بين النّاس[2].

ولقد آتينا بني إسرائيل قوم موسى – عليه السّلام– التّوراة، وقوم عيسى – عليه السّلام– الإنجيل، التمّم للتّوراه، و الحكم بالكتابين السّماويّن والمُلْك، والنّبوّة، فكلّ الأنبياء بعد إبراهيم – عليه السّلام – من ذرّيّة إسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام، باستثناء محمّد – صلّى الله عليه وسلّم – فإنّه من ذرّيّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام. ورزق الله تعالى بني إسرائيل من الطّيّبات طعاماً وشراباً، وفضّل بني إسرائيل، قوم موسى – عليه السّلام –، على عالمي زمانهم. وقد جاء على لسان موسى – عليه السّلام – بشأن النّبوّة والملك اللذين آتاهم الله تعالى بني إسرائيل قول الحقّ جلّ و علا في سورة المائدة[3] : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

و كذلك آتى الله تعالى بني إسرائيل آياتٍ بيّنات من الأمر و حججاً واضحاتٍ في الحلال و الحرام، فما اختلف القوم إلاّ من بعد ما جاءهم العلم الصّحيح من الله تعالى،

---

[1] تفسير الطّبري ٨٨/٢٥ .

[2] الجلالين و انظر تفسير ابن كثير ٢٥١/٧ .

[3] الآية ٢٠ .